

إسهامات الإبداع الشعري النسوي في رقي الفكر الحضاري
- العصر العباسي أنموذجا -

**Contribution of Feminist Poetic Creativity to the
Advancement of Cultural Thought -Abbasid Era as a Model -**

* ط.د: عمر بن ادريس¹ ، أ.د: عز الدين حفار²

Omar Benidris¹, Azeddine Hafar²

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)

Abdelhamid Ibn Badis University- Mostaganem, Algeria
omar.benidris.etu@univ-mosta.dz gmail.com@azeddinehaffar

تاريخ النشر: 2021/09/02

تاريخ القبول: 2021/03/31

تاريخ الإرسال: 2020/11/08

ملخص البحث

لقد كانت المرأة الشاعرة العباسية امتدادا للمرأة الشاعرة العربية فهما ووعيا وفكرا. وبعد الاستقصاء والتتبع والتحليل لجملة من الأشعار النسوية خلال العصر العباسي وما قبله؛ يظهر أنّ المرأة العربية ساهمت بشكل لافت في دفع عجلة الفكر العربي لمسايرة الركب الحضاري، فجاءت أبياتا للدفاع عن المظالم أو طلب التحرر من سلطة المجتمع الذكوري، كما جاءت لترسيخ أو أصر العلاقات الأسرية، ولتثبيت معالم الدين والشرف والعفة والقومية وحرية الفكر والاختيار والشجاعة والتحدى في الكثير من المناسبات، بالإضافة إلى الكثير من المقومات والأبعاد الحضارية التي احتضنها هذا النوع من الشعر.

الكلمات المفتاح : إبداع شعري نسوي، فكر حضاري، امرأة شاعرة، عصر عباسي.

Abstract :

The Abbasid poetic woman was an extension of the Arab woman's understanding, awareness and thought. And after the survey and the analysis of a range of feminist poetry during the Abbasid and earlier; it has been revealed that Arab women contributed significantly in advancing the Arab thought to keep pace with civilization, So their poetry came to ask for freedom from the unfair restrictions imposed by the authority of man. It came to strengthen the bonds of family relations, and to stabilize the parameters of religion, honor, chastity, nationalism, freedom of thought and choice, courage and challenge on many occasions; besides,

* عمر بن ادريس: omar.benidris.etu@univ-mosta.dz

to many of the components and dimensions of civilization that embraced this type of poetry.

Keywords: Feminist poetic creativity; Civilized thought; Poetess woman; Abbasid era .



مقدمة:

لا يكاد يختلف اثنان حول الأثر الكبير الذي ساهم به الشعر العربي في الدفع بحركة الفكر العربي خطوات نحو الأمام - ولا سيما في العصر العباسي - وذلك من خلال ظهور حركات الترجمة ومخالطة العرب - والشعراء تحديداً - لتلك الثقافات التي عرفت طريقها إلى البلاد العربية، وامتزجت في كثير من الأحيان بثقافات تلك المناطق حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية فيها.

وما لا شك فيه أنّ المرأة المثقفة في العصور الإسلامية الأولى لا سيما في العصر العباسي حملت على عاتقها الكثير من الخوارزميات التي حاولت بواسطتها تغيير بعض المسارات الفكرية آنذاك، فكان لما جادت به القريحة النسوية من أشعار في مختلف الموضوعات والأغراض الأثر البارز في تغيير أنماط البيئة الحضارية من قريب أو بعيد، الأمر الذي استوقفنا لنسلط الضوء على هذا الجانب المعتم من الإبداع الشعري النسوي الذي كان ولا يزال زاخراً بشحنات حضارية لا شك أنّنا لو تتبعنا أثرها بدقّة لخرجنا بنصيب وافر من المقومات التي تجعلنا نقطع أشواطاً طويلة تجاه الركب الحضاري، فكيف أسهم الشعر النسوي العربي بمختلف أبعاده الإنسانية والفكرية والروحية والفنية في تعبيد الطرق نحو حضارة إنسانية أسالت الكثير من الخير وتشهد لها سائر الأمم بالريادة والسبق؟

إنّ الوعي الشعري بما جادت به القريحة النسوية يكشف العديد من جوانب الفكر المتحضّر والمتمدّن لدى هؤلاء الشواعر العربيات، و" الوعي الشعري يتحقق في معرفة ذات ماهية جمالية، وعلى هذا الأساس انقسم البحث في الجمال الشعري العربي إلى قسمين اختصّ الأول منهما بدراسة الجمال الشعري بذاته، أي بما يجعله جمالاً وهو الفضاء الشعري... والوجه الثاني يتمثل في الكيفية التي يتظاهر بها الجمال وعياً، وانطلاقاً من فكرة القصيدة أيضاً " ¹ .

فالشعر العربيّ عامة والنسويّ منه خاصّة، فضلا عن كونه واحدا من أشكال وصور الإبداع الفكري، فهو قصديّ بدرجة كبيرة إذ يعبر عن ملامح الفرد والمجتمع والبيئة، وعن جوهر الإنسان وعلاقاته بما يحيط به.

ونتيجة لأهمية هذا الشعر من الناحية الحضارية وما يحمله من أبعاد مختلفة، فقد اهتم الدارسون به واعتنوا به عناية فائقة، فنجد أنّ الاهتمام تجاوز الأقطار العربية وتعدّها، وما هو جمع من المستشرقين يتناولونه، بالشرح والتحليل، وقد لاحظنا في دراسة "بلاشير" للأدب العربي اهتمامه بشعر المرأة. وقد اختلفت تسميات النقاد لهذا الشعر بين الأدب النسائي والأدب الأنثوي².

وقد ميّز "كمال أبو ديب" بين الأدب النسائي والأدب الأنثوي، وهو يقول في مقدّمة ترجمته لكتاب الثقافة والأميرالية لإدوارد سعيد: "بالإشارة إلى الأدب والكتابة أميّر بين أمرين، فالأدب الذي يعبر عن موقف محدد عقائدي ينبع من التعلق بما يعتقد صاحبه أو تعتقد صاحبه بأنّه سمات خاصة بالأنثى ورؤياها للعالم وموقعها فيه، فإنّني أسميه أدبا أنثويّا وهكذا أتحدّث عن النقد الأنثوي، وعن الأنثوية معادلا للكلمة الإنجليزية "feminism" وما يعنيه هذا التميّز هو أنّ النقد الأنثوي قد يكتبه رجل لامرأة، أمّا الأدب النسائي فهو من إنتاج أنثى تحديدا³.

كما أنّ هذا الشعر نفسه عرف نقلة نوعيّة في أزهى عصوره من حيث ما تضمّنه العقل العربيّ عن طريق الاحتكاك بعناصر بشريّة جديدة، ما جعل الأوّل يبتكر طرقا جديدة لإعمال الفكر.

وفي ظلّ التيارات التقدّميّة للفكر الإسلامي والحضارة الإسلاميّة، فإنّ الدعوة إلى التحديث والتجديد في الثقافة والأدب، تصبح مسلمة من مسلمّات الحياة الثقافية للإنسان المسلم، إذ إنّ معطيات الحضارة ومفاهيمها متغيّرة ومتجدّدة، مع التجدّد المستمرّ، والتطوّر الدائم، في شؤون الحياة والفكر، والعلم والثقافة، ورؤية الناس للكون، ورؤية الفرد المبدع لنفسه وللآخرين، نتيجة تفاعله مع متغيّرات المجتمع، ومع قراءاته المستمرة، وتأثيراته الثقافية المتبوعة، وتجاربه الإبداعية المتواصلة⁴.

إنّ الفرد البشريّ بموجب التغيّرات التي يعرفها في حياته ومعاملاته اليومية مع كل ما يحيط به سواء على المستوى الماديّ أو المعنويّ، أو على المستويات الظاهرية وخلافها من مستويات خفيّة، كل ذلك جعل منه مادّة حيّة تتأقلم مع التطوّرات الحاصلة لها على طول خطّ وجودها في تلك البيئة المتصلة بها. ومن الأشكال التي مستّها تلك التطوّرات جانب اللغة، وباعتبار الشعر أحد العناصر المرتبطة باللغة

ارتباطا وثيقا فقد نال حظّه من تلك التحديثات التي جعلت الإنسان يلبسه إياها، وذلك من خلال محاولته تيسير سبل التواصل مع أخيه الإنسان باختلاف شكله ولونه وجنسه إذ تعتبر اللغة أداة للتواصل والتخاطب بين الأفراد.

أولاً: تجليات الوعي الحضاري والفكري في الشعر النسوي القديم :

إنّ الخطاب الشعريّ أينما كان وحيثما ارتحل، ذكوريّاً كان أم أنثويّاً، طالما حمل في طياته قسماً كبيراً من مقومات الحضارة البشريّة، إلّا أنّ " ارتباط نص المرأة بالسياق النسويّ العام في «خطاب شعري أنثوي» هو الذي يضفي نكهة ثقافية معيّنة على ذلك الخطاب، نكهة في مقدورها تأمين قراءة الذات الشاعرة المؤنثة، والقبض على الخصوصية الجمالية والدلالية لشعر الأنوثة"⁵.

وعليه فإنّنا نجد أنّ صورة مجتمع ما قد تتجسّد في مختلف الإبداعات الفنيّة ولا شك أنّ الشعر واحد منها، إذ طالما اعتبر الأخير مرآة تعكس الحياة الفكرية والعقلية والحسية لمجتمع من المجتمعات انعكاساً تطابقياً، وهو رأي قديم شاع في العصور الأولى، " وأفلاطون أوّل من ربط الشعر والمرأة، لأن هذا الربط كان يخدم غرضه في تصوّر الشعر نوعاً من الظلّ أو الانعكاس، وقد ظلّت هذه الفكرة موجودة بعد ذلك"⁶.

ومن هنا نجد أنّ علاقة المرأة الشاعرة مع مجتمعتها علاقة زئبقية لا تكاد تثبت على حال - هذا إذا استثنينا حديثنا عن الرجل - إذ نجدها مربوطة وإياه بخيط مطاطي يلين أحياناً، ويشدّ لأخرى بحسب الظروف التي نشأت وترعرعت فيها، ولكنّ دور القصيد منها لا يتجاوز حدود العلاقة القائمة أبداً بين أيّ شاعر ومجتمعه، و"إنّ علاقة الشاعر بالمجتمع تتفرّغ في ثلاثة اتجاهات:

أ- الموقف الاجتماعي للشاعر من حيث العوامل الاقتصادية والبيئة الاجتماعية والقيم الاجتماعية التي تمّد شعره أو تتمثّل فيه .

ب- المضمون الاجتماعي أو الغاية الاجتماعية التي يحاول الشاعر أن يحققها .

ج- التأثير الاجتماعي للشعر، لاعتماد الشاعر على الجمهور صغيراً كان ذلك الجمهور أم كبيراً "⁷.

لم تكن المرأة إذاً بمعزل عن ذلك كلّ، بل كانت فاعلة ومتفاعلة في الوقت نفسه بكلّ ما يحيط بها، لاسيما إذا كانت هذه المرأة على حظّ وافر من الوعي والفهم، فكانت شاعرة أو من بنات السادة والشرفاء، "وإذا كانت الصورة العامة للمرأة العربيّة قبل الإسلام لدى الشعراء - ومن ثمّ المجتمع؛ إذ كانوا

هم الذين يعبرون عن رؤية المجتمع غالبا- أنثوية أساسا، فإن الاستثناء كثيرا ما يصحّح القاعدة، كما يقال في الثقافة الألمانية، أي: نستطيع أن نستخلص من أشعار أولئك المعلقّاتين جوانب كثيرة إنسانية للمرأة «الشعرية» التي لم تك بدعا من المرأة العربية قبل الإسلام، وهي التي لم تك في كلّ أطوارها مجرد أنثى، ولكنها كانت عضوا حيا فاعلا يسهم في بناء الحياة الاجتماعية إلى جانب الرجل⁸. وقد كانت المرأة العربية على عهد الجاهلية شاعرة تفهم الشعر، وناقدة تستطيع التعليق عليه، وتميّز جيده من رديئه، ولا يعني ذلك إلّا أنها كانت بلغت مقدارا صالحا من الثقافة الشعرية⁹.

وذكر "بلاشير" أن "لويس شيخو" جمع بعض النصوص الشعرية تحت عنوان "رياض الأدب في مرثي شواعر العرب"، وقد بلغ عدد الشواعر الواردة أسماؤهن في المجلد الأول سبعين شاعرة تقريبا وأغلبهنّ في نظر بلاشير مغمورات، وقد ذكر أسماء بعض الشواعر اللواتي أبدعن في غرض الرثاء كـ "دختوس بنت لقيط التميمي، وجنوب الهذليّة، والدّعجاء بنت وهب بن سلمة الباهليّة، والخرنق بنت بدر، والخنساء تماضر بنت عمرو"¹⁰. كما نجد يذكّر ليلي الأخيلى التي اشتهرت بعلاقتها مع الشاعر اللص توبة بن الحمير الخفاجي الذي عشقته حتى ماتت على قبره¹¹.

ولم يهتم "بلاشير" بالأدب النسائي فحسب بل اهتم أيضا بالنقد النسويّ، ففي سياق حديثه عن تكوين الشاعر الحجازي أشار إلى أنّ النساء أصبحن يحتلن مكانة مرموقة في مكّة والمدينة، وذكر سكنة بنت الحسين كنموذج للمرأة المثقفة، فقد كان يمثل أمامها الشعراء، فينشدون أشعارهم وتحكم بينهم في بعض الأحيان. وفي هذه النوادي الأدبية ظهرت نساء أخريات أمثال الثريا وعائشة بنت طلحة، بمظهر النساء المسترجلات، فلم تعد المرأة كائنا يفتتن بجمالها، بل أصبحت تفرض وجودها وثقافتها...¹²، وخير ما نستدلّ به على ذلك خبر "أمّ جندب" وما روته كتب التراث من قصّة احتكام "امرؤ القيس" و"علقمة بن عبدة" إليها في قضيّة الرّيادة الشعرية.

فلمرأة إذا، كانت على قدر كبير من الوعي والثقافة، وفهم ما يدور حولها، ولربما فاقت الرجل في ذلك في غير ما مناسبة، "ولعلّ رجز تلك المرأة العربية... يوحي بأنّ النساء كنّ يرين، وقد كنّ محقّقات، في أمر تحديد صفة جنس الجنين غير ما كان الرجال يرون"¹³.
وها هي أعرابية تقول بعد أن هجرها زوجها بعدما أنجبت له بنتا¹⁴:

مَا لِأَيِّ حِمْرَةٍ لَا يَأْتِينَا ؟ يَظُلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضْبَانٌ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَيْنَا تَاللَّهِ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا
وَأَمَّا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالْأَرْضِ لِزَارِعِينَا
نُثْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فهذه المرأة الشاعرة بفهمها ووعيتها على حدّ تعبيرها تدرك أنّ المرأة ليست الملوّمة إن أنجبت إنثاء، وقد أثبت العلم الحديث أنّ الفضل في تحديد جنس المولود إنّما مردّه إلى الرجل، فهي بهذا أكثر تحضراً وفهماً. ومن طريف ما وصل إلينا من أخبار، وإن كانت تلامس بعضاً من المغالاة، ما جاء على لسان زرقاء اليمامة، وقد قال الجاحظ أنّها من بنات لقمان بن عاد، وأنّ اسمها "عنز"، وقال العسكريّ بأنّ اسمها "اليمامة" وبه سمي بلدها، كما قيل أنّها من بنات جديس، وكان يضرب بها المثل في حدة البصر، فيقال: "أبصر من زرقاء اليمامة"، وقيل أنّها كانت تبصر مسيرة ثلاثة أيام فيما يزعمون، وكانت تنذر قومها من الجيوش الغازية، فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدّوا له، وقد احتال أحد التبايع من حمير ليغزو قومها، فأمر أصحابه فقطعوا شجراً وحملوه أمامهم ليتستروا به، ولما أصبحوا على مسيرة ثلاثة أيام أبصرتهم الزرقاء فعلمت بالحيلة، فقالت تنذر قومها، في نزعة قوميّة تترجم لإخلاصها لقومها وبني عشيرتها¹⁵:

خُذُوا هُمْ حِذَارُكُمْ يَا قَوْمَ يَنْفَعُكُمْ فَلَيْسَ مَا قَدْ أَرَاهُ الْيَوْمَ يُخْتَقَرُ
إِنِّي أَرَى شَجَرًا مِنْ خَلْفِهَا بَشَرٌ فَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الْأَشْجَارُ وَالْبَشَرُ
صُفُّوا الطَّوَائِفَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَاهِبِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ
وَعَاجِلُوا الْقَوْمَ عِنْدَ اللَّيْلِ إِنْ رَقَدُوا وَلَا تَخْلِفُوا هُمْ حَرْبًا وَإِنْ كَثُرُوا

فهاهي الزرقاء تبصر وتبصر في موقف حضاريّ يدلّ على أصالة شاعرة عربيّة، تدفع عن قومها الأذى وتشير عليهم بأسباب النجاة، إلّا أنّهم خالفوها فهلكوا.

ومن جميل ما يذكر حول وطنيّة المرأة العربيّة الشاعرة وتمسّكها بملاعب صباها، ونفورها من الاغتراب والافتتان خارج حدود قبيلتها التي تعتبرها وطناً تحنّ إليه حنين الولد إلى أمّه، ما تذكره امرأة من بني عامر بن صعصعة وقد زوّجت في طيء، فاستوحشت المقام بين أهل بلعها، فقالت¹⁶:

لَا تَحْمَدَنَّ الدَّهْرَ أَخْتُ أَحَا لَهَا وَلَا تَرْتِنِ الدَّهْرَ بِنْتُ لِوَالِدِ
هُمْ جَعَلُوهَا حَيْثُ لَيْسَتْ بِحُرَّةٍ وَهُمْ طَرَحُوهَا فِي الْأَقَاصِي الْأَبَاعِدِ

ف نجد هذه الشاعرة عاتبة على أهلها الذين أبعدها عن وطنها الذي ترعرعت فيه، وكانت المرأة إذا زوّجت في الغرباء كثيرا ما تجزع وتحزن لمزايلتها معاني قبيلتها، ومفارقتها ديار عشيرتها¹⁷.

وتلك هي الخنساء المرأة الحكيمة المفوّهة قولاً، التي خبرت الزمان وجربت طباعه وتلوّنت بصبغات صروفه، وذلك بشهادة الكثير من الشعراء، " وقيل لجريير يوما من أشعر الناس؟ قال أنا لولا الخنساء، قيل فبم فضلتك قال بقولها¹⁸:

إِنَّ الزَّمانَ وَمَا يَفْقَى لَهُ عَجَبٌ أَبْقَى لَنَا ذَنْبًا وَاسْتُؤْصِلَ الرَّاسُ
أَبْقَى لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَفَجَعَنَا بِالْحَاكِمِينَ فَهُمْ هَامٌ وَأَرْمَاسُ
إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

فهي ترى بأنّ الليل والنهار حتّى وإن اختلفا فاختلفا فهما يكون بالرضا بينهما فيقنع كل منهما بما يعطي للآخر، ليعود الثاني فيردّ للأول عطاءه، في توافق مستمرّ بينهما، لكنّ ذلك عند البشر أمر غير مألوف، لكثرة الخلافات بينهم، الأمر الذي يوحى بفسادهم.

ومن الأخبار التي ذكرها صاحب العقد الفريد عن أصالة المرأة الشاعرة العربية في تخيير الزوج الذي تراه هي مناسبا لنفسها، لا ما يذكره هو عن نفسه ويفاخر به غيره، إذ إنّها ترتضي في زوجها مجموعة من الخصال، فإن حملها وتقلّد بها قبلته وإلا، جاء الرفض منها جليّا، وقد ورد " خبر عن فتاة سألت الوسيط عن حرفة الخاطب الذي أرسله، فعاد إليه وسأله عمّا يجيب، فقال الخاطب أبياتا يفخر فيها بشجاعته قائلا:

وَسَائِلِي مَا حِرْفَتِي قُلْتُ حِرْفَتِي مُقَارَعَةُ الْأَبْطَالِ فِي كُلِّ شَارِقٍ
وَأَصْبِرُ نَفْسِي حِينَ لَا حُرَّ صَابِرٍ عَلَى أَلَمِ الْبَيْضِ الرَّقَاقِ الْبَوَارِقِ

فلما أنشد الوسيط الأبيات أمام المرأة ردّته قائلة: قل له: أنت أسد، فاطلب لنفسك لبؤة، فلست من نسائك، وأنشدت أبيات من الشعر منها:

أَلَا إِنَّمَا أَبْغِي جَوَادًا لِمَالِهِ كَرِيمًا مُحْيَاهُ قَلِيلِ الصَّدَائِقِ

واستمرت تعدّد الصفات التي ترى وجوب توافرها في الرجل الذي يتقدّم لخطبتها¹⁹. فهذه الشاعرة تعلن موقفها الرافض بكلّ جرأة، معرّضة بهذا الطالب، ذاكرة ما يستهويها من الرجال.

وهذه أم ثواب الهزانية²⁰ تعطي دروسا لكل أم أنجبت غلاما، وسهرت على رعايته، ثم انداح عن دوحته وركب رأسه، وأطاع زوجته، ثم أضحى لا يتوانى عن أذية أمه قولا وفعلًا فقالت في ذلك²¹:

رَبَّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ
أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَغَبًا
حَتَّى إِذَا أَضَ كَالْفَحَّالِ شَدَّبَهُ
أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَنِّهِ الْكَرَبَا
أَنْشَأَ يُخَرِّقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي
أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا !
قَالَتْ لَهُ عَرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِي:
رَفَقًا فَإِنَّ لَنَا فِي أُمِّمَا أَرْبَا
وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعِرَةٍ
مِنْ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطَبًا²²

ولطالما عرفت العلاقة بين الزوجة والأم اضطرابا بيننا لتصل إلى الحد الذي ينطق الأم الشاعرة تنديدا بنكران معروف الولد، فكانت هذه الأبيات مضربا للأمثال في كل مناسبة تعرّضت فيها أم لضرر الابن أو الزوجة أو هما معا.

وكثيرا ما يجيء القول الفصل على طريقي لسان امرأة، وخاصة إذا كانت هذه المرأة صبيّة فتية، الأمر الذي يزيد لها رفعة، ويعلي مكانتها، ويردّ الكيد عنها وعن أهل بيتها، " ويروى أنّ ابنة لابن الرّقاء وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه، فقالت: وما تريدون؟ فقالوا: جئنا لنهاجيه، فقالت وهي صبيّة:

تَجَمَّعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَوَجْهَةٍ
عَلَى وَاحِدٍ لَا زِلْثُمْ قَرْنَ وَاحِدٍ²³

فاستطاعت الفتاة رغم حداثة سنّها أن تفحم الشعراء دفعا عن أبيها حتّى انفضوا عنه قبل أن يلقوه. ولعلّ الإشفاق يتمكّن من الشاعرة العربيّة فينطقها، ومن ذلك قول أعرابية لمست كفّ أبيها فألفتها خشنا، فقالت:

هَذِهِ كَفُّ أَبِي خَشَنَهَا
صَرَبُ مِسْحَاةٍ وَنُقْلٌ بِالزَّيْبِلِ²⁴

وهنا أظهرت الفتاة الشاعرة إشفاق البنوة، لعلمها بالمسؤوليّة العظيمة التي تقع على عاتق الأبوة. وقد قالت هند بنت المهلب بن أبي صفرة وكانت امرأة جليلة فاضلة ذات حسب ونسب، فذكرت النساء واصفة إيّاهنّ إذا أحسنّ القول: " ما زُيِّنَ بشيء كأدب بارع، تحته لبّ ظاهر"²⁵.

لقد ذكرت مصادر الأدب أنّ المرأة المفوّهة قولاً، تأتي بعذب الكلام في مواطنه فيفوتها شيء، يستدركه الفطن فيصوّبه بعد استحسان جلّه، كما حدث مع ليلي الأخيلىة حينما قدمت على الحجاج ومدحته بأبيات قالت فيها²⁶:

إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاءَ سَقَاهَا

فصوّب قولها وقال: لا تقولي غلام، قولي همام، ثم أنزلها ضيفة على إحدى نساءه، وأكرمها بخمسائة من الإبل الأدم، جزاء قولها.

ومن طيّب ما وصلنا من أخبار²⁷، أنّه كان لأعرابيّ امرأتان، فولدت إحداهما غلاماً، والأخرى جاريةً، فرّقته أمّه وقالت مضارةً لضرّتها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْعَالِي أَنْقَذَنِي الْعَامَ مِنَ الْجَوَالِي
مِنْ كُلِّ شَرِّهَاءَ كَشَنَ بَالِي لَا تَدْفَعُ الضِّيمَ عَنِ الْعِيَالِ

فسمعت الأخرى فأقبلت ترقّص بنتها وتقول:

وَمَا عَلَيَّ أَنْ تَكُونِ جَارِيَةً تَغْسِلُ رَأْسِي وَتَكُونُ الْفَالِيَةً
وَتَرْفَعُ السَّاقِطَ مِنْ خِمَارِيَةٍ حَتَّى إِذَا مَا بَلَغَتْ ثَمَانِيَةَ
أَزْرَثُهَا بِنَقْبَةٍ يَمَانِيَةٍ أَنْكَحَهَا مَرَوَانُ أَوْ مُعَاوِيَةَ

أَصْهَارُ صَدَقٍ وَمُهِوْرُ غَالِيَةٍ

فترّجها مروان على مئة ألف، وقال إنّ أمّها لحقيقة ألا تكذب ظنّها، ولا تحتب بعدها، وقال معاوية: لولا أنّ مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر، ولكنّها لا تحرم الصلة، فبعث إليها بمئتي ألف درهم

28

يظهر من قول المرأة الشاعرة الأولى مدى استيعابها لفكرة إنجاب المولود الذكر وسعادتها بذلك لعلمها بضرورة استعانة المرأة بقريبها الرجل، كما أنّ الشاعرة الأخرى تعلم تمام العلم بهذه الحقيقة إلا أنّها لا تتحرّج من إنجاب الأنثى لحاجتها إليها، إذ إنّ إنجاب الأنثى يمكن أن يعود بالنفع أيضاً، وقد وقع ذلك بالفعل بعد تزويج الصبيّة.

ثانيا: نماذج من الوعي الثقافي والحضاري للشعر النسوي في العصر العباسي وما بعده:

لقد شهد عصر بني العباس انفتاحا عظيما في مختلف مجالات الحياة ، كما أنّ الشعر باعتباره الفنّ الأبرز في تلك الأزمنة عرف نقلة نوعية خاصة ، واكتسب حلا جديدة، كما ظهرت المرأة الشاعرة فيه بشكل بارز، فتعددت الأسماء النسوية الشاعرة، وجاءت القصيدة تحمل من الأبعاد الحضارية المعاصرة لحكم بني العباس الشيء الكثير، " وساعد الاستقرار السياسي النسبي واختلاط الشعوب بعضها ببعض وتلاقح الثقافات المختلفة وانبثاق مجتمع جديد وارث لكلّ تلك الثقافات، ساعد كلّ ذلك على ظهور أدب جديد هو تعبير صادق عن كلّ هذا التغيير والتمازج وانطلاق القوى الخلاقة الذي طرأ على العصر العباسي " 29 .

وقد برز الشعر النسوي يكتسب طابعا مدنيّا بعيدا عن الطابع البدويّ الذي طغى عليه في العصور التي سبقت حكم العباسيين ، فإنّ حكمهم "... أخذت المدينة تؤكّد نفسها، وبدأت الحضارة تعبّر عن ذاتها، وأخذت الصحراء تنقلص في سيادة مدنها وأساليب عيشها أمام مثل جديدة نسبيا وأساليب نسبيا أيضا ناتجة عن هذه الحضارة الجديدة " 30 .

ومن شواهد الفكر المتأصلّ السليم حول تهذيب العلاقات القائمة على المودة بين الجنسين، وظهر ذلك لدى المرأة العربية الشاعرة، ما ورد عن الأصمعيّ أنّه قال: قلت لأعرابية. ما تعدّون العشق فيكم؟ قالت: القبلّة، والضمة، والغمزة، ثمّ أنشأت تقول:

مَا الْحُبُّ إِلَّا قُبْلَةٌ وَعَمْرٌ كَفٍ وَعَصْدُ
مَا الْحُبُّ إِلَّا هَكَذَا إِنَّ نُكْحَ الْحُبِّ فَسَدُ

ثمّ قالت، فكيف تعدّون العشق فيكم؟ قلت: يقعد بين رجليها، ثمّ يجهد نفسه، فقالت: يا ابن أخي، ما هذا عاشقا، هذا طالب ولد " 31 .

فالأعرابية الشاعرة من منطلق قولها تؤصّل للعلاقة الحميمة الطاهرة في الحبّ وثقافة تهذيبها، وإن شئنا القول للرومنسية العربية قبل ظهورها في أوروبا بقرون، وهي بموقفها هذا تفصح عن الطهر الذي ينبغي أن يحكم العلاقات بعيدا عن كلّ ما يחדش الشرف أو يهتك أستار العفة.

وقد عرفت حضارة العرب تقديسا للعنصر البشريّ دوغما النظر إلى جنسه، ذكوريّا أم أنثويّا، ناطقا باللسان العربيّ أو غيره، " وإلى جانب ما ذكرناه فإنّ الحضارة العربيّة نظرت إلى الإنسان على أنه سيّد العالم وأنّه أشرف المخلوقات وأفضلها، ولذلك عنيت به وبالإنسانية جمعا " ³².

فالإنسان هو الجوهر بغضّ النظر عن انتمائه أو تكوينه البيولوجي أو الاجتماعي، فهي لم تفرّق بين المرأة والرجل، ولا بين هذا العرق أو ذاك فيمكن للجميع أن يحقق المعرفة ويتبنى الإبداع على اختلاف أشكاله وصوره.

وإنّ الحضارة العربيّة قد " عنيت بعقله ومعرفته وتهذيبه لأنّ العقل الإنساني في نظرها أساس التفكير، وعماد الحياة، ومركز الكون . ولذلك فإنّ الفكر العربيّ يمثّل جميع من كتب، ودوّن بالعربيّة، وتكلّم بها. والحضارة العربيّة تعتبر شاملة لهؤلاء جميعا دون النظر إلى أعراقهم وأصولهم، لأنّ العربيّة كما يقول الرسول (ص) ليست بأب ولا أم. إنّما العربيّة اللسان " ³³.

وهذه الحجناء بنت نصيب الشاعرة، مولى المهدي تصدع بأبياتها طالبة فضل الأمير طامعة في عطايها مادحة له، وقد قالت ³⁴:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَرَانَا	فَقِيرَاتٍ وَوَالِدُنَا فَقِيرٌ!
أَضْرَبْنَا شَقَاءَ الْجَدِّ مِنْهُ	فَلَيْسَ يَمِيرُنَا فِيمَنْ يَمِيرُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ غَيْثٌ	يَعُمُّ النَّاسَ وَابِلُهُ غَزِيرٌ

لقد حظيت النساء في عصر العباسيين بمكانة خاصة، ومما زاد في مكانتهنّ تلك الجهود التي بذلنها من أجل لفت الأنظار إليهنّ وإزالة الغشاوات التي كانت تحجبهنّ عن نظرائهنّ من الرجال، حرائر كنّ أو جوار، "وقد بلغت المرأة في هذا العصر مبلغا عظيما من الثقافة حتّى كانت تنظم الشعر وتناظر الرجل في عهد الرشيد والمأمون. وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة. وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتا شعريّة إلى زوجها الرشيد، وإنّ القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدلّ دلالة واضحة على علوّ كعبها في الأدب والشعر والسياسة " ³⁵. ومّا جاء فيها :

لَحْزِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ غُنْصُرٍ	وَأَفْضَلِ رَاقٍ فَوْقَ أَعْوَادِ مَنْبَرٍ
وَوَارِثِ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَفَخْرِهِمْ	وَلِلْمَلِكِ الْمَأْمُونِ مِنْ أُمِّ جَعْفَرٍ
كَتَبْتُ وَعَيْنِي تُسْتَهْلُ دُمُوعُهَا	إِلَيْكَ ابْنِ عَمِّي مَعَ جُفُونِي وَمَحْجَرِي

أُصِبتُ بِأَدْنَى النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً وَمَنْ زَالَ عَنْ كَيْدِي فَقَلَّ تَصَبُّرِي³⁶

فالسيدة الشاعرة زبيدة زوجة الرشيد تعلم أنّ ولدها الخليفة الأمين قد جانب الصواب وارتكب الكثير من الأخطاء التي لا ينبغي للحاكم ارتكابها، وطالما بذلت له النصيحة محدّرة إيّاه من مغبة ذلك، إلى أن قتل، فأرسلت بالاعتذار لأخيه المأمون الذي كان يجيد إدارة الحكم، مذكّرة إيّاه بالرحم سائلة الإحسان.

ويتردد الصوت النسويّ الشاعر من البيت العباسي، ليخرج على لسان بيت علم وأدب، وقد تشبّبت يوما بخادم من خدم أبيها، فقالت خديجة بنت الخليفة المأمون أبيات تغتت بها المغنّية "شارية" أمام المتوكل، وهذه الأبيات قولها³⁷:

بِاللّهِ قُولُوا لِي لِمَنْ ذَا الرَّشَا	الْمُثْقَلُ الرِّدْفِ الْهَضِيمُ الْحَشَا
أَظَرُّ مَا كَانَ إِذَا مَا صَحَا	وَأَمْلَحَ النَّاسِ إِذَا مَا انْتَشَى
وَقَدْ بَنَى بُرْجَ حَمَامٍ لَهُ	أَرْسَلَ فِيهِ طَائِرًا مُرْعَشَا
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ حَمَامًا لَهُ	أَوْ بَاشِقًا يَفْعَلُ بِي مَا يَشَا
لَوْ لَيْسَ الْقَوْهِيُّ مِنْ رِقَّةٍ	أَوْجَعَهُ الْقَوْهِيُّ أَوْ حَدَّشَا

وقد طرب المتوكل وقال لمن هذا الغناء، فقالت المغنّية أخذته من دار المأمون ولا أدري لمن هو، فقالت له إحدى الجوّاري، أنا أخبرك لمن هو فقال لمن؟ قالت الشعر والغناء جميعا لخديجة بنت المأمون قالت له في خادم لأبيها، كانت تمواه وغنّت فيه هذا اللحن، فأطرق المتوكل، وقال لهما لا يسمع هذا منكما أحد.³⁸

إنّ المرأة الشاعرة في العصر العباسي، طالما كانت تبدي الرغبة والشوق إلى الحبيب، بحكم ما عرفه هذا العصر من ذبوع للغناء والطرب واللهو، ولم تكن تجد حرجا في ذلك كما كان عليه الحال في العصور التي سبقتها، ولعل أبرز من اشتهرت من الشاعرات في هذه الحقبة الجوّاري، بحكم ما كنّ يعانينه من استرقاق وظلم في حياتهنّ، وها هي عنان الناطقيّة الشاعرة الجريئة، من أذكى النساء وأشعرهنّ، وكان الشاعر العباس بن الأحنف يهواها. "وقد هويت عنان فتى من أهل بغداد لا نبات بعارضيّه، في غاية من الحسن، وكان يدّعي النسك والعفاف، فطلبت وصاله، فأبى، ثم إنّ الفتى بعد ذلك نبتت لحيته، وضجر من طول الزهد، فأتاها يلتمس منها ما كانت تلتمس منه، فأنشأت تقول³⁹:

هَلَّا وَأَنْتَ بِمَاءٍ وَجْهَكَ تُشْتَهَى رُوْدُ الشَّبَابِ قَلِيلَ شَعْرِ الْعَارِضِ

آلَان : إِذْ نَبَتَتْ بِحَدِّكَ حَبِيَّةً - ذَهَبَتْ بِمُلْحِكَ - مِلْءُ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلُ السَّلَافَةِ عَادَ خَمْرُ غَصِيرِهَا بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ خَمْرٌ خَامِضٍ

يتّضح من سابق قول عنان جرأة زائدة في ردّ من ردّها سابقا، وإن كانت قد هويته، بل وقد علّلت سبب رفضها له إذ أشارت إلى أنّ الفتى تبدّل حسنه قبحا، وأنّ ما كان يجتذبا إليه في الماضي قد انحى، ولم تتحرّج في ذكر السبب، وهذه لفظة جميلة تدلّ على قوّة في الشخصية وقدرة فائقة على المواجهة، وتحير عظيم من فنون الردّ.

وقد حتّت يوما فتوجّهت إلى الذي يملك أمرها ويعلم حالها فقالت⁴⁰:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو طَارِقَاتٍ مِنَ الْهَوَى لَهَا فِي فُؤَادِي جَمْرَةٌ تَنْتَضِرُ
فَلَا مُشْتَكَى إِلَّا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ أَرْقُ وَأَحْفَى بِالْعِبَادِ وَأَرْحَمُ

وهنا يظهر التمسك العقائديّ جليّا في قولها، لاسيما بعد أن تدرك الشاعرة العربيّة أنّ مردّ الأمر أولا وأخرا يعود إلى الذي برأ البشر، وهو وحده القادر على فكّ العقد، وإزالة الغشاوات.

أمّا الشاعرة عليّة بنت المهديّ " العباسة "، أخت الخليفة هارون الرشيد، فقد كانت أديبة شاعرة ذات صوت جميل تحسن الغناء، وكانت من أحسن خلق الله وجهها، ذات ظرف وعقل، وقيل أنّها هويت غلاما يدعى " رشأ "، فلمّا وصل خبره لهارون أبعدته وقيل قتله، وعلقت بعده بغلام اسمه " طلّ ". فلمّا بلغ خبره إلى الرشيد قال: " والله لمن ذكرته لأقتلنك ". فدخل عليها يوما على حين غفلة، وهي تقرأ القرآن، فسمعها تقرأ " فإن لم يصبها وابل... " - أي قوله تعالى من سورة البقرة " فإن لم يصبها وابل فطلّ " الآية 265- فأكملت بعد أن انتبهت له: فما نهي عنه أمير المؤمنين .. ذلك أنّ الكلمة بعد " وابل " هي كلمة " طلّ " أي المطر الخفيف، فخشيت أن يظنّ الرشيد أنّها تذكره فيصيبها بما أقسم عليها ويبرّ بقسمه، حينها ضحك وقال. ولا كلّ هذا. فقالت⁴¹:

يَا عَادِلِي قَدْ كُنْتُ قَبْلَكَ عَادِلًا حَتَّى ابْتُلِيتُ فَصِرْتُ صَبًّا ذَاهِلًا
الْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ مَجَانَةً فَإِذَا تَحَكَّمَ صَارَ شُغْلًا شَاغِلًا
أَرْضَى فَيَعْضِبُ قَاتِلِي فَتَعَجَّبُوا يَرْضَى الْقَتِيلُ وَلَا يُرْضَى الْقَاتِلُ

وهنا يظهر خوف الشاعرة جليًا وحرصها العميق على الطاعة والامتثال لأمر الأخ ووليّ النعمة، ما دفعها إلى تغيير الكلام "كلام الله" طاعة له وخوفًا على النفس من المحذور، الأمر الذي جعل عليّة الشاعرة الأدبية الحاذقة تتخيّر الألفاظ لاسترضاء الرّشيد.

وقيل أنّ جارية لها تدعى "طغيان" وشت بها إلى "رشيا" يوما، فقالت فيها ⁴² :

لَطْفِيَّانَ خُفُّ مُذْ ثَلَاثَيْنِ حِجَّةً جَدِيدٌ فَمَا يَبْلَى وَلَا يَتَخَرِّقُ
وَكَيْفَ بَلَى خُفِّ هُوَ الدَّهْرُ كُلُّهُ عَلَى قَدَمَيْهَا فِي الْهَوَاءِ مُعَلَّقُ

لا تخلو هذه الأبيات من الطرافة التي عرفت بها الشاعرة العربية خاصة في القصور العباسية ومجالس الطّرب، كما تظهر أيضا عتابا ولوما واستحقارا لمن ينقل الأخبار ويمشي بالنميمة، فجاء الردّ من عليّة بنت المهديّ على هذا النحو.

وها هي لبانة ابنة عليّ ابن المهديّ زوجة الأمين وكان قد قُتِلَ قبل الدخول عليها، تقول بعد

مقتله ⁴³:

أَبْكَيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأَنْسِ بَلْ لِلْمَعَانِي وَالسَّيْفِ وَالتُّرْسِ
أَبْكَى عَلَى سَيِّدٍ فُجِعْتُ بِهِ أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْغُرْسِ
يَا مَالِكَا بِالْعَرَاءِ مُطَرِّحَا خَانَتْهُ أَشْرَاطُهُ مَعَ الْحَرَسِ

تبدي الأبيات السابقة لوعة المرأة الشاعرة وأسأها على الزوج بالرغم من مقتله قبل البناء بها، وهذا يثبت مدى وفائها له، كما تظهر أسفا شديدا على خيانة شرطته له وانفضاضهم عنه فجاء رثاؤها غاية في الجمال.

وقد نال رثاء المرأة اهتماما كبيرا لدى النقاد نتيجة لأبعاده المختلفة، "وهكذا يمكن أن نقول بأنّ بلاشير من أهمّ المستشرقين الذين اهتموا بشعر المرأة [المرأة الشاعرة]، أي الشعر الذي يكون من إنتاج المرأة، كما أولى عنايته للشعر الذي قيل في المرأة حتى ولو كان من إنتاج الرجل . ويبدو أن أجود شعر المرأة عنده هو شعر الرثاء، كما أشاد بالمرأة التي فرضت وجودها في المجتمع العربيّ شعريّا وثقافيّا ⁴⁴.

لقد كانت النساء الشاعرات ببلاد المغرب مكينات من الشعر أيضا، "ومنهنّ السيّدة أم النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي، ذكرها ابن عربي الحاتمي في كتاب المحاضرات وقال إنّها تجيد الشعر وقد أنشدت للسيد أبي علي صاحب فاس عند ولايته قصيدة تقول في مطلعها ⁴⁵ :

جَاءَ الْبَشِيرُ بِوَعْدٍ كَانَ يُنْتَظَرُ
فَأَصْبَحَ الْحَقُّ مَا فِي صَفْوِهِ كَدْرُ
مِنْ خَيْرِ هَادٍ [عَدَا] بِالْهَدْيِ يَأْمُرُنَا
وَفِي أَوَامِرِهِ التَّسْدِيدُ وَالنَّظَرُ
لَيْتَ إِذَا افْتَحَمَ الْأَبْطَالُ حُومَتَهَا
يُفْنِي الْكَتَائِبَ لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ

فالشاعرة أم النساء بهذه الأبيات أبانت عن جودة في القول إذ زينت أبياتها بالنص القرآني مادحة هذا الوالي بسمات الصلاح والهدى والشجاعة مما ينبغي أن يتسم به الأمير من صفات أخلاقية، لا بصفات جسمية أو جسدية تزول بتقادم السنين.

وهذه تيممة بنت يوسف بن تاشفين أخت علي بن يوسف، تكنى أم طلحة. كانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم، وسكنت مدينة فاس. وراها يوما كاتب لها فبهت وكانت قد أمرت بحاسبته وبرزت لذلك فلما نظرت إليه عرفت ما دهاه وفطنت لما عراه فأومأت إليه وأنشدته⁴⁶:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ
فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلًا
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَا
وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التُّرُولا

فهذه الشاعرة الأميرة ببلاد المغرب الإسلامي، الفطنة المتبصرة قطعت جميع أسباب الريبة أمام هذا الكاتب فجادت بقرينة شعرية تضع الحد الفاصل لما تطمح إليه نفسه أو تمنّيه، فسارعت واتخذت من الشعر مرصادا وعاجلته بسد المنافذ وتعزية النفس، فهي شمس يستحيل الوصول إليها.

ولعلّ قائل يقول وما نصيب المرأة في هذه النهضة العربية الشاملة الكاملة، وهي التي إذا عذمت مشاركتها في عمل ما يعتبر غير كامل ولا شامل. والجواب أن المرأة المغربية كانت دائما عنصرا فعالا في تطوّر البلاد وتقدّمها وازدهارها. وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس كلية القرويين ومشاركتها في الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي. ولا يشذ هذا العصر عن سالفه في أخذ المرأة بأسباب النهوض، بل إنّه يعطينا أمثلة رائعة لمساهماتها في ضروب النشاط الفكري بإطلاق من علمي وأدبي⁴⁷.

وقد كانت صفية بنت عبد الله الرّبيّ⁴⁸ أديبة شاعرة موصوفة بحسن الخطّ، وهي من الأندلس،

وقد عابت امرأة خطّها فقالت⁴⁹:

وَعَائِبَةُ خَطِّي فَقُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي
فَسَوْفَ أُرِيكَ الدَّرَّ فِي نَظْمِ أُسْطُرِي

وَنَادَيْتُ كَفِّي كَيْ تَجُودَ بِحَظِّهَا وَقَرَّيْتُ أَقْلَامِي وَرَقِّي وَمُحْمَرِّي
فَخَطَّتْ بِأَبْيَاتٍ ثَلَاثٍ نَظَّمْتُهَا لِيَبْدُو بِهَا خَطِّي فَقُلْتُ لَهَا انْظُرِي

استطاعت صفيّة من خلال هذه الأبيات أن تردّ على غريمتها بالفعل والقول معا، إذ كتبت وخطت هذه الأبيات الجميلة، فأفحمت من يعيها من خلال إجادتها نظم الشعر وإجادة خطّه أيضا. وأنشدت لنفسها الأديبة الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الشِّلبيّ، وهي أديبة شاعرة جزلة مشهورة، وكانت تعلّم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها، وعمرت عمرا طويلا، وسكنت إشبيلية، فقالت⁵⁰:

وَمَا يُرْتَجَى مِنْ بِنْتٍ سَبْعِينَ حِجَّةً وَسَبْعٍ كَنَسَجِ الْعَنْكَبُوتِ الْمَهْلَهْلِ
تَدِبُ دَبِيبَ الطِّفْلِ يَسْعَى إِلَى الْعَصَا وَتَمْشِي بِهَا مَشْيَ الْأَسِيرِ الْمَكْبَلِ

يظهر من خلال البيتين السابقين مقدرة الشاعرة على توظيف الحكمة والاستعانة بحسن الصورة لإثباتها، مع الإفادة من (النص القرآني/ النص الشعري القديم) لترصيع القول من خلال المفردات: سبعين حجة، العنكبوت، الطفل، العصا، الأسير المكبل.

وقالت وكان قد أحسن إليها أحدهم وبعث إليها بعض الدنانير مصحوبة بأبيات شعرية، فردّت

قائلة⁵¹:

مَنْ ذَا يُجَارِيكَ فِي فَضْلٍ وَفِي عَمَلٍ وَقَدْ بَدَرْتَ إِلَى فَضْلٍ وَلَمْ تُسَلِّ
مَا لِي بِشُكْرِ الَّذِي نَظَّمْتُ فِي غُنْفِي مِنَ اللَّالِي وَمَا أَوْلَيْتَ مِنْ قَبْلِي
حَلَيْتَنِي بِحُلَى أَصْبَحْتُ زَاهِيَةً بِهَا عَلَى كُلِّ أَنْثَى مِنْ حُلَى غُطْلٍ
لِلَّهِ أَخْلَاقُكَ الْغُرُّ الَّتِي سَقَيْتَ مَاءَ الْفُرَاتِ فَرَقَّتْ رِقَّةَ الْغَزَلِ

وهنا تظهر الشاعرة شاكرة للمتفضل عليها، مشيدة بكرم أخلاقه ونبله الفيّاض، وشكر النعمة أسلوب حضاريّ رائع لاسيما إن حُلّد حسن الصنيع بقصيد يتردّد على الألسن كردّ للجميل.

وتلك عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبيّة، قيل أنها لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهما وعلماء وأدباء وشعراء وفصاحة وعقّة وجزالة وحصافة، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم ... فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، ولا تردّ شفاعتها، وكانت حسنة الخطّ تكتب

المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم ... ومن رقيق شعرها وقد أرسلت به إلى بعض الرؤساء المطلع التالي⁵²:

لَوْلَا الدُّمُوعُ لَمَّا خَشِيتُ عَذُولًا فَهِيَ الَّتِي جَعَلَتْ إِلَيْكَ سَبِيلًا

وقد توفيت سنة أربع مئة هجرية. إن القرطبية من خلال هذا القول تعلم يقينا أن المرء وإن تجلّد أمام عاذليه فدموعه تفضحه، تلك الدموع هي التي جعلتها تتوجّه إليه، ومن جميل فطنتها اتخذ هذا المعنى الرقيق ليكون مطلعا للقصيد المرسل.

ومن عجيب نظم المرأة العربية فخرها بصناعتها، وقد روى الأصمعيّ قال: مررت بأعرابية تمدح مغزلها وهي تقول⁵³:

رَأَيْتُكَ بَعْدَ اللَّهِ تَجِبُرُ فَأَقْتِي إِذَا مَا جَفَانِي الْأَقْرَبُونَ تَعُودُ
دَرَاهِمُ بِيضٌ لَا تَرَى تُرَى لَنَا وَثُوبٌ إِذَا مَا شِئْتُ مِنْكَ جَدِيدُ
فَلَوْ كُنْتُ عَبْدًا يُسْتَعْلَلُ حَسَدَنِي وَأَنْتَ عَلَى كَسْبِ الْعَبِيدِ تَزِيدُ

فهذه الأبيات توضح جلياً وعي الشاعرة العربية بالنفع العظيم الذي تعود به الصنعة على المرأة الصانعة، لاسيما في الظروف الصعبة التي يمكن أن تحيط بها، وهي توصل بفكرها إلى ثقافة الجد والاجتهاد والمثابرة لكسب القوت وتحصيل الرزق .

خاتمة:

من خلال النماذج الشعرية السابقة التي حرّرتها القرينة النسوية في مختلف العصور العربية، من الجاهلية إلى العصر العباسي، ومن مختلف الأمكنة من أرض الإسلام شرقاً إلى الأندلس غرباً، يظهر القول الشعري النسوي مدى تمتع المرأة بالذكاء والفطنة والفهم إضافة إلى مساهمتها في دفع دولاب الحضارة الإنسانية ويمكن حصر ذلك في النقاط التالية :

- إن المرأة العربية من الجاهلية ووصولاً إلى الإسلام في أبهى عصوره أثبتت حضورها وفعاليتها في شتى المجالات وقد ساهمت في نشر الوعي والفكر بمختلف صوره، كما قد شاركت الرجل في أجل أعماله حتى لنجدها تخوض المعارك تارة، وتعتلي سدة الحكم أخرى، وتأمر حيناً وتشير بالأمر حيناً آخر، كما نجدها تحافظ على الرّباط الأسري وتدعمه، هذا دون أن تنسى أو تهمل ما عليها من متطلبات يحتاجها نظيرها الرجل.

- استطاعت المرأة العربية ونخص بالذكر الشاعرة العربية أن تحفظ للمرأة عبر التاريخ هويتها وحضورها وممارساتها وإسهاماتها في صناعة الحضارة العربية الإسلامية وبناء صرحها العالي جنباً إلى جنب مع قرينها الأزلي، وهذا من خلال تلك القصائد والمقطوعات الشعرية التي حفظتها كتب التراث - رغم قلة مقارنتها بشعر الرجل - إذ إنّ استنطاق تلك الأشعار لكفيل باستخراج الكثير من عصائر الفكر القويم والوعي السليم الذي يمكن الاستعانة به في صقل الموروث العربي من جديد.

إنّ النظم النسويّ شعراً ورجزاً منذ فجر التاريخ قد تناول مختلف الأغراض الشعرية، ومسّ العديد من المعاني والصّور، فلم يقتصر على غرض الرثاء، ومعاني الحزن وصور الأسى، كما تصفه بعض كتب المستشرقين، وإنّ تلك المقطوعات الشعرية للمرأة العربية التي تناثرت في مصادر اللغة والأدب أبانت عن وعي ظاهر وسمت بارز من الفهم والأصالة والمجاعة والريادة والسبق الذي طالما قصّرت الدراسات القديمة في اقتطاعه لها، وإيفائها نصيبها منه.

هوامش:

- ¹ - هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، حزيران/يوليو، 2007، ص 15 .
- ² - ينظر: حورية الخليلي، ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيست بلاشير، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010م، ص 129 .
- ³ - ينظر في هامش: حورية الخليلي، ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيست بلاشير، ص 129، عن كتاب إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تركمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط3، 2004، ص 53.
- ⁴ - سعد دعبس، دور الدين في الإبداع الشعري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، مركز الإسكندرية للكتاب، ط1، 2006، ص 2 .
- ⁵ - يوسف وغليسي، خطاب التأنيث، دراسة في الشعر النسوي الجزائري، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013م، ص 19.
- ⁶ - إحسان عباس، فن الشعر، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1996م، ص 22 .
- ⁷ - إحسان عباس، فن الشعر، ص 134 .
- ⁸ - عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات تحليل أنثروبولوجي / سيميائي لشعرية نصوصها، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2012، ص 319 .

- ⁹ - عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات تحليل أنثروبولوجي / سيميائي لشعرية نصوصها، ص 325 .
- ¹⁰ - حورية الخليلي، ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيست بلاشير، ص 129 .
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص 130 .
- ¹² - المرجع نفسه، ص 131 .
- ¹³ - عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات تحليل أنثروبولوجي / سيميائي لشعرية نصوصها، ص 322 .
- ¹⁴ - المجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ج 1، ص 186 .
- ¹⁵ - البغدادي، خزنة الأدب، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 2000م، ج 10، ص-ص 163-164، وينظر: إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة عربية، إصدارات وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 108، 109 .
- ¹⁶ - المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تح محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1992، ج 2، ص 592 .
- ¹⁷ - ينظر: عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات، ص 323 .
- ¹⁸ - الخنساء، من الأعمال الكاملة، ديوان الخنساء، سمير إبراهيم، أشرقت للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت، ص 256 .
- ¹⁹ - ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح د عبد المجيد الرحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1983م، ج 7، ص 109، وينظر: مهون الصقّار، فضاءات في الأدب العربي القديم، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2008م، ص-ص 225-226 .
- ²⁰ - امرأة من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ينظر: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص-ص 312-313 .
- ²¹ - المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص-ص 312-313 .
- ²² - الرَّعْبُ أول ما يلدو من ريش الفرخ، أمّ الطعام: أفضله، الفُحْال: فحل النخل، شَذْبَةُ: قُطْعُهُ، الأَبَار: المَلْقَح للنخل .
- ²³ - الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تح عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط 1، 1992م، ج 2، ص-ص 332-333 ، وينظر: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص 343، والشاعر هو عدي ابن الرقاع العاملي شاعر أموي، وابنته تدعى سلمى .
- ²⁴ - الزَّيْبِل قَمَّة من ورق التَّخِيل. ينظر: التوحيد، البصائر والذخائر، تح وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 134. وينظر: الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج 3، ص 172 .
- ²⁵ - ينظر: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص 394 .
- ²⁶ - ليلى الأخيلية، ديوان ليلى الأخيلية، تح د واضح الصمد، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 2، 1424هـ/2003م ، ص-ص 88-89 ، وينظر: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج 1، ص-ص 398-399 .
- ²⁷ - الأبيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، تح مُجَدَّ خير طعمه الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2008، ص 5، ص 359، وينظر: الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج 4، ص-ص 270-271 .

- 28- الأبشيهي، المستطرف، ص359. وينظر: الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج4، ص271.
- 29- صلاح مهدي الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004م، ص15.
- 30- صلاح مهدي الزبيدي، دراسات في الشعر العباسي، ص15.
- 31- ينظر: الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، ص575، وينظر: مهدي أسعد عرار، البيان بلا لسان: دراسة في لغة الجسد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص262.
- 32- ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1975م، ص176.
- 33- ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص176.
- 34- السيوطي، نزهة المجالس في أشعار النساء، تح عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر، دط، دت، ص39، و ينظر: إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة عربية، ص226.
- 35- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، القاهرة، تونس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج2، ص-ص351-352.
- 36- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تق: محمد السويدي، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007، ج3، ص526.
- 37- السيوطي، نزهة المجالس في أشعار النساء، ص48،49، وينظر: إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة عربية، ص227.
- 38- السيوطي، نزهة المجالس ص-ص48،49، وينظر: مائة شاعرة وشاعرة عربية، إدريس بوديبة، ص227.
- 39- إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة، ص254، 255. والأبيات غير موجودة في ديوانها.
- 40- المرجع نفسه، ص255.
- 41- ينظر: الأصفهاني، كتاب الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1937م، ج10، ص163، وينظر: الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ج1، ص-ص33، 34. وينظر: إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة، 2007، ص266، 267.
- 42- الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج10، ص167، وينظر: الحموي، تجريد الأغاني، تح طه حسين وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، دط، 1957م، ج3، ص1174. و إدريس بوديبة، مائة شاعرة وشاعرة، ص263، 264.
- 43- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، 525.
- 44- حورية الخليلي، ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند رجبست بلاشير، ص131.
- 45- ينظر: النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2015، ج1، ص206، 207.

- ⁴⁶ - ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام المراس، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1995م، ج4، ص255.
- ⁴⁷ - عبد الله كنون الحسني، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2015، ج1، ص 205، 206 .
- ⁴⁸ - شاعرة شابة على قدر كبير من الفصاحة الشعرية، وقد توفيت سنة 417هـ وهي دون الثلاثين.
- ⁴⁹ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ابن بشكوال، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010، مج 2، ص 344 .
- ⁵⁰ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ابن بشكوال، ص 346
- ⁵¹ - المصدر نفسه ، ص 346.
- ⁵² - المصدر نفسه ، ص 343.
- ⁵³ - البغداد، تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2001، م1، ص121، وينظر: أشعار النساء، المرزباني، تح سامي مكّي العاني وهلال ناجي، عالم الكتب، دط، دت، ص112.